**مهارات الطبري في الـاريخ**

**إنّ التاريخ عند المسلمين من العلوم التي حازت اهتماما كبيرا ، وذلك لصلتها المباشرة بعلوم الشريعة ، خاصة السيرة النبوية وعلم الحديث ، ولذلك نجد في كتابات الأولين الأثر الواضح لمنهج المحدثين في كتابة التاريخ الإسلامي ، وإنّ المتتبع لأولى الكتابات التاريخية الإسلامية لا يجدها تخرج عن الإطار الديني ، ولعلّ من أعظم المؤرخين الذين تمكنوا من تثبيت هذا المفهوم لدى المسلمين الإمام المجتهد أبو جعفر الطبري ، فمؤلفه التاريخي الكبير لا يزال إلى اليوم مصدرا أساسيا وصرحا معرفيا تاريخيا هائلا لا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال .**

**وفي هذا الموضوع سنعرض شيئا من حياة هذا الإمام البارز ، وبعد ذلك نعرّج على مؤلفه التاريخي ، فنبدأ بـذكر ماهية الكتاب ومنهج مؤلفه ثمّ محتواه المعرفي ، وأخيرا اهتمام المؤرخين به قديما و حديثا .**

**وقد جاء الموضوع مختصرا ، وحاولت أن يكون الاختصار غير مخل مستفرغا الجهد في سبيل تحقيق ذلك ، فإن حققت القصد فهذا توفيق من الله ، وإن جاء الخلل والنقص وما ذلك ببعيد عن إنسان ، فإنما أُوتي من تقصيرنا والشيطان والله المستعان .**

**أولا : تـرجمــة الإمــام الطبـري :**

**1ـ نسبه :**

**هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير المكنى بأبي جعفر من أهل آمل بطبرستان(1) ، ولم يذكر أحد ممّن ترجم له سبب هذه الكنية ، وقد كان رحمه الله لا يعرف النساء ، إذ لم يتزوج ولم يكن له ولد يكنى به ، أما النسبة وهي الطبري فنسبة إلى طبرستان ، ونسبه البعض إلى آمل مكان ولادته ، فيقال محمد بن جرير الآملي الطبري ، والبعض الآخر ينسبه إلى بغداد التي سكنها وأقام بها حتى وفاته ، فيسمى الآملي الطبري البغدادي (2) .**

**2- ولادته و نشأته :**

**ولــد الطبري سنة أربع وعشرين ومائتين ( 224 هـ/ 838م ) في مدينة آمل ، وقد نشأ في كنف والده الذي كان حريصا على تلقينه العلم بعد أن رأى فيه ملامح الذكاء ، فجلس إلي حلق العلـم بطبرستان ، فحـفظ القرآن وهو ابن سبـع سنين وكتب الحديث وهو ابن تسع ، وأراد أن يرحل في طلب العلم فكان له ذلك في سن مبكرة ، إذ رحـل وهو ابن اثنتي عشر عــاما فقط (3) ، ووصل بغداد وقرأ على شيوخها ، ثمّ رحل إلى البصرة والكوفة ، وهو في كلّ هذا يبحث عن العلم ويسعى إلي المعرفة ، فما إن يسمع بعالم أو محدّث في مصر إلا وجهّز نفسه إلى الرحلة .**

**وكان من شيوخه خلق كثير في أمصار عديدة ، قال الذهبي في السير:" سمع محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب و إسماعيل بن موسى السندي وإسحاق بن أبي إسرائيل وسفيان بن وكيع ومجاهد بن موسى وسعيد بن يحيى الأموي ومحمد بن المثنى وأمما سواهم " (4).**

**وممّا يلاحظ أن أبا جعفر تلقى العلم في رحلته على معظم علماء عصره وسمع عن الكثير من الشيوخ الثقاة أصحاب الأسانيـد العاليـة ، وهــذا سيكون له الأثر الكبير في تكوين شخصيته ، فأصبح إمام عصره ، وتصدر مجالس العلم بين أقرانه ، قال الخطيب :"وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيها أحد من أهل عصره ، وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعاني ، فقيها في أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطـرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومسائل الحلال و الحرام ، عارفا بأيام الناس وأخبارهم " (5) .**

**3- أخلاقه ومواقفه :**

**كان الطبري من العلماء العاملين ، فقد رزق حسن الخلق والجـرأة في الحـق والتواضع ، كان ثقـة صادقا حــافظا رأسا في التفـسير، إماما في الفقه والإجماع والاختلاف"(6) .**

**وممّا يروى من سيرته أنّه لماّ دخل بغداد وكان معه بضاعة يتقوت منها فسُرقت ، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه ، فقال له بعض أصدقائه : تنشط لتأديب ولد الوزير أبي الحـسن عبد الله بن يحيى بن خاقان ، قال نعم ، فمضى الرجل فأحكم عليه أمره وعـاد فأوصله إلى الوزير بعـد أن أعاره ما يلبسه فقرّبه الوزير ورفع مجلسه ، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر ، فاشــترط عليه أوقـات طـلبه العلـم والصلوات والراحة ، وسـأل إسـلافه رزق شهر ففعل ، وأدخل حجرة التأديب ، وخرج إليه الصبي ، فلما كتّبه أخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين ، فلم تبق جارية إلا أهدت له صينية فيها دراهم ودنانير ، فردّ الجميع وقال : قد شورطت على شيء فلا آخذ ســواه ، فدرى الوزير ذلك ، فسأله فقال : هؤلاء عبيد وهم لا يملكون ، فعظم ذلك في نفس الــوزير(7) ..**

**وكان الطبري لا يقبل أعطيات الأمراء ، التمس منه وزير(8) أن يضع له كتابا في الفقه فألف كـتاب الخفيف ، فأرسل إليه ألف دينار فردّها (9) . وعُرض على الطبري القضاء فرفض ، فلما نقله الخاقاني (10) وجه إلى أبي جعفر مالا كثيرا ، فامتنع عن قبولــه ، فعرض عليه المــظالم فعاتبه أصحابه وقالوا له : في هذا ثواب ، و طمعوا في قبوله المــظالم فانتهرهم وقال : قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه (11) .**

**4- مؤلفــاته ومكانته العلمية :**

**كان الطبري جامعا لعلوم الشريعة من قرآن وتفسير ونحو وفقه وعقيدة وتاريخ ، وشهد له بهذا غير واحد من العلماء ، ومن أهم مؤلفاته كتابه في التفسير "جامع البيان في تأويل آي القرآن"، وممّا يروى عنــه أنّه قال لأصحابه : تنشطون لتفسير القرآن ، قالوا : كم يكون قدره ، فقال : ثلاثون ألـف ورقـة ، فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره في ثـلاثة آلاف ورقة (12) ، وقال السيوطي عنه : رأس المفسرين على الإطلاق ، وقال عن تفسيره : هو من أجلّ التفاسير ،لم يؤلف مثله (13) .**

**وأمّا في علم الحديث فقال عنه الخطيب البغدادي : إنّه كان عـالما بالسنن وطـرقها إلى أن قال : و له كتاب سمّاه "تهذيب الآثار " لم أر سواه في معناه إلا أنّه لم يتمّه (14) ، و قال ابن خلكان : إنّه كان إماما في الحديث (15) .**

**وأمّا في الفقه فكان إماما مجتهدا لم يقلّد أحدا (16) ، وله مذهب خـاص به يدعى المذهب الجريري ، ومن كتبه الفقهية : " لـطيف القـول في أحكام شرائع الإسـلام " وقد دوّن فيه مذهبه ، وله أيضا اختلاف الفقهاء ، وفي التاريخ قد ألف كتابا ضخما يعد من أكبر الموسوعات التاريخية الإسلامية ، وقد وسمه بـ : " تاريخ الرسل والملوك " قال ابن خلكان : كان ثقة في نقله وتاريخه أهمّ التواريخ وأثبتها (17) . 5**

**- وفــاتـه:**

**توفي أبو جرير الطبري يوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة عشر وثلاثمائة 310 هـ/ 922م في بغداد و دفن بها ، وشيّعه عدد كبير من الأشخاص ، وقد رثاه خلق كثير(18) .**

**كتـاب الطبــري في التــاريخ .**

**1- ماهية الكتاب ومنهجه : إنّ تـاريخ الطبري يعتبر من أهم كتب التاريخ الإسلامي فقد حوى كمّا هائلا من الأخبار ، لذلك فهو مصدر أساسي لكل باحث في تاريخـنا الإسلامي خاصة ، وعن ماهية هذا الكتاب يقول مؤلفه :"وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتدأ ربنا جلّ جلاله خلـق خلقه إلى فنائهم ممّن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه ، فشكر نعمه من رسول مرسل أو ملك مســلّط أو خليفة مستخلف ، فزاده إلى ما ابتدأه من نعمة في العاجل نعما وإلى ما تفضّل به عليه فضلا ، ومن أخّر ذلك له منهم وجعله عنده دخرا ، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأ به من نعمه وعجّل له نقمه ، ومن كفر منهم نعمه فمنعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه ، مقرونا ذكر كلّ من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه وجمل من حوادث الأمور في عصره وأيامه (19) .**

**فالطـبري ينطلق من نظرته الإيمانية بأنّ كل شيء بأمر الله وقضائه ، وأن له سننا ماضية لا تبديل لها ، وإيمانه بحرية الإنسان وقدرته على الاختيار وهو في ذلك يسعى إلى توضيح العــــبر والدروس لأولي الأبصار ، ويريهم كيف تتحقق سنن الله على البشر .**

**ونظرة الطبري إلى التاريخ نظرة دينية ، إذ يعتبره علما من علوم الشريعة ، ولتوضيح منهجه وما حواه كتابه قال أيضا :"فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه من بعض الماضين ممّا يستنكره قـارئه من أجل أنّه لم يعرف له وجها في الصحة و لا معنى في الحـقيقة ، فليعلم أنّــه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنّما أوتي من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنا إنّما أدينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا " (20) .**

**ولقد اعتمد الطبري منهج الإسناد في كتابه ، فجمع الأحداث التـــاريخية ودعمها بسـند أو أكـثر ، وذلك توخيا للصدق والأمانة العلمية ، وهو بذلك أراد توثيق الخبر التاريخي بنفس المنهج الذي يوثق به الخبر الشرعي ، ولذلك فقد تميّز هذا المؤلف بسعة معلوماته وجمعه لروايات الإخباريين الذين سبقوه وحفظه لها ، حيث فقدت الكثير من كتبهم وبقي كتابه الموسوعي الذي استوعب رحمه الله غالب المصنفات التي سبقته ، كمؤلفات المـدائني (21) والواقـدي (22) وهشام بن محمد الكلبي (23) والأصمعي (24) وعـوانة بن عبد الحكم (25) والهيثم بن عـدي (26) .**

**واعتمد الطبري نظام الحوليات في سرده أحداث التاريخ الإسلامي ، فالتاريخ حسب السنين يبدأ في السنة الأولى للهجرة ، ولا تفوتنا الإشارة إلى الذكر أنّ الطبري لم يكن أول من كتب التــاريخ باعتماد الحوليات ، فالهيثم بن عدي ألّف كتابا في التاريخ على هذا المنهج بعنوان"كتاب التاريخ على السنين" ، وهو أمر يشير إلى أنّ الكتابة التاريخية على هذا المنهج كانت معروفة (27) .**

**وقد أخذ بعض الباحثين على الطبري أنه يعوّل على الرواية وحدها ، ومع ذلك فلم يكن يُعدّل الرواة أو يجرحهم كما يصنع علماء الحديث ، اعتقادا منه أنّ الحديث مصدر من مصادر التشريع تقام عليه الأحكام ، أما التاريخ فلا تقام عليه أحكام شرعية (28) .**

**و إذا كان الطبري في كتابة التاريخ الإسلامي اعتمد على مصادر إسلامية ، فإنّ الحال يختلف في كتابة تاريخ غير المسلمين ، فليس كلّ الأحداث التاريخية ممّا يمكن تتبعه من خلال سلسلة من السند الضابط إلى وقت حدوثها ، من ذلك مثلا أحداث التاريخ قبل ظهور الإسلام والتي لم يجد لها مصادر موثوقة غير النصوص القرآنية والنبوية ، وحين تعوزه الإشارة في هذه النصوص كان يلجأ إلى كتب التفسير بما فيها من إسرائيليات ، وكان يعتمد في تاريخ الفرس على ترجمات عربية لكتب فارسية ، ويعوّل في تاريخ الروم على ما نقله من كتب نصارى الشام الذين كان لهم بعض العلم بتاريخ الدولة الرومانية ، وليست كل هذه نصوصا دينية وليس كلها ممّا يمكن تتبعه ، وكانت هذه إحدى أهم المشكلات التي واجـهها مـؤرخو المرحلة الأولى التي تقوم على التاريخ بالمنقول ، وتـعـني قـبل كل شيء بالرواية والإسناد (29) .**

**2- محتوى الكتاب : لقد بدأ المؤلف كتابه بذكر البدء والخليقة وهبوط آدم إلى الأرض وقـصة قابيل وهابيل ، ثمّ عــرض للأنبياء من نوح إلى محمد عليهم الصلاة و السلام ، وأرّخ للأمم السابقة ، فذكر أخبار الفــرس وبني إسرائيل ، وقد شغل الحديث عن الفرس مكانا واسعا ، خاصة تاريخ الساسانيين المتأخر ، ثمّ أعقب ذلك بالحديث عن بني إسرائيل ، ثمّ ذكــر ملوك الروم مقتصـرا على ســرد قــائمة بأسمائهم ومـدة حكمهم ، وذكر أيضا ملوك اليمن وأخبـــــار المنادرة والغساسنة ، كمـــا تحدث أيضا عن أجـداد رسول الله صلّى الله عليه وسلم وطرفا من سيرته العطرة قبل البعثة ، ثمّ بدأ الوحي وصولا إلى يوم وفاته عليه الصلاة والسلام كما تحدّث عن شمائله ، ثمّ استهل عصر الخلفاء الراشدين و ما كان فيه من أحداث عظام كحروب الردّة و الفتوحات ، ثمّ الفـتنة التي بـدأت زمن عثمان بن عفان والتي تواصلت في عهد على بن أبى طالب ، ثمّ تحدّث عن الفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية التي تتناول أخــبارها من يوم تأسيسها إلى نهايتها ، ليذكر بعدها كيف قامت دولة بني العباس وكيف حـصل لهم ذلك وأسهـب في ذكر ذلك كلّه ، ثمّ حكى ما وقع في أيام بني العباس وما كان فيها من اقتتال وفتن ، وتوقـفت أحــداث هذا المؤلف الضخم عند سنة اثنين و ثلاثمائة للهجرة .**

**ورغم أنّ كتاب الطبري يغلب عليه التاريخ السياسي والعسكري فإنّه لا يخلو من بيان بــعض الاتجاهات الاجتماعية ، كالصراع بين العصبيات العربية وبين العرب والموالي ، كما يمكن أيضا تتبّع الحركات السياسية كالخوارج والشيعة و القرامطة والزنج ، كما أبرز معلومات إدارية قيمة تتمثل في تقديم قــوائم سنوية بعمال الخوارج والديوان وأمراء الحجّ وعمال الأقاليم ، كما أمدنا بمعلومات عمرانية عن خطط المدن كبغداد ، وتحدث عن الأطوار التي مرت بها عمارة الحرمين الشريفين (30) .**

**3-اهتمام المؤرخين بكتاب الطبري :**

**لقد اكتسب تاريخ الطبري نفوذا واسعا ، ويرجع ذلك قبل كل شيء إلى منهجه ، فقد اعتبر مثالا للصرامة (31) . وقد ذيّله كثيرون ، منهم غريب بن سعد ( ت 386هـ/ 995م ) ولـه صلة تـاريخ الطبري ، ومنهم أيضا أيوب بن الكامل المعروف بالملك الصالح ، وهو من كبار الملوك الأيوبيين بمصر (ت 647 هـ/ 1246م ) .**

**كما تُــرجم الكتاب إلى لغات كثيرة ، فترجمه محـمد بن عبيد الله البلعمي ( ت 329 هـ/ 940م ) إلى الفارسية ، وراجت هذه الترجمة ونُقلت إلى التركية في العهد العثماني ، وطبعت في الإسكندرية عام 1260هـ/1844م ، ثمّ نقلت الترجمة الفارسية إلى العربية من قبـــل المستشرق " zotenberg " ، وطــبعت في باريس سنة 1291هـ/1874م (32) .**

**و لمّا أقبل المستشرقون في القرن التاسع عشر على طبعه طبعة علمية كاملة لم يجدوا منه نسخة واحدة تامة ، فاضطروا إلى تأليف نسخة متكاملة من الأجزاء المتفرقة وطبعوه طبعة أولى ما بين سنتي 1295 هـ/ 1879م و 1315 هـ/ 1898م في ثلاثة أقسام ، بلغت في مجموعها ثمانية وعشرين مجلدا .**

**القسم الأول: ويضم الأجزاء المتعلقة بما قبل الإسلام وبالسيرة النبوية وبالخلفاء الراشدين حتى سنة 40 هـ .**

**القسم الثـاني : ويشمل تاريخ الدولة الأموية ما بين سنتي 41 هـ و 130هـ . القسم الثالث : ويمتد بين سنتي 131هـ و 302 هـ .**

**وقد ألحـقوا بـه في نهايته المنتخب من ذيل المذيل في أسماء الصحابة والتابعين للطبري ، وقسما من مختصر غريب بن سعد ، كما أتـبعـوا الطبعة بفهارس شاملة ، ثمّ أعيد طبعه مرة أخرى في ليدن (هولندا) ما بين سنتي 1314 هـ/ 1897م و1318 هـ/1901م ، و كان الطبع تحت إشراف المستشرق "دي غويا" ولجنة من كبار المستشرقين منهم" نولد كيه و غويدي و مولر" . و على أسـاس هذه الطبعة الأوروبية ، طبع في مصر في المطبعة الحسينية سنة 1339هـ/ 1920م ، ثمّ طبع في مطبعة الاستقامة سنة 1358هـ/ 1939م بعد حذف التعليقات و الفهارس ، ثمّ طبع طبعة أخرى في دار المعارف بالقاهرة ، واعتمدت على ما ظهر في المخطوطات الأخرى لأجزاء الكتاب مع نسخته الأوروبية ..**

**وقــد أشرف عـلى هـذه الطبعـة محمد أبـــو الفضل إبراهيم و كانت ما بين سنتي 1379 هـ/ 1960م و 1386 هـ/1967م ، ثم طبع مرة أخرى عام 1386 هـ/ 1967م ، وجاء في عشر مجلدات (33) ، وتوالت طبعات الكتاب بعد ذلك .**

**ـــــــــــــــــــــــــــ**

**الهوامش :**

**1-آمـل : أول مدن طبرستان ، وهذا الإقليم يضم مدنا واسعة كثيرة .**

**2- الذهبي، ســير أعــلام النبــلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، 1986، ج14، ص267 .**

**3-أمخزون محمـد، تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة من روايات الطبري والمحدّثين، مكتبة الكوثر، الرياض، 1994،ج1، ص148 .**

**4-الذهبي، مصدر سابق ،ج14 ص269**

**5- الخطيب البغدادي، تــــاريخ بغـداد، دار الكتاب العربي، بيروت ،ج2، ص136. 6- الذهبي، مصدر سابق،ج14،ص270.**

**7- نفسه،ج14،ص272.**

**8- الوزير هو العباس بن الحسن أبو أحمد كان أديبا بليغا استوزره المكتفي .**

**9- الذهبي، مصدر سابق،ج14، ص270.**

**10- هو محمد بن يحي بن عبيد الله بن خاقان من وزراء العباسيين ، استوزره المقتدر عام 299هـ /911م ، و توفي سنة 312هـ/ 924 م .**

**11- الذهبي، مصدر سابق ،ج14، ص275.**

**12- نفسه،ج14 ،ص276.**

**13- جلال الدين السيوطي، طبقــات المفسريــن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ص82 .**

**14- الخطيب البغدادي، مصدر سابق ،ج2،ص163.**

**15- ابن خلكان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ،ج4 ، ص191.**

**16- نفسه،ج4 ،ص191.**

**17- نفسه،ج4 ،ص191**

**18- نفسه ، ج4 ،ص191 .**

**19- الطبري، تاريخ الرسل و الملوك، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، ج1، ص6 .**

**20- نفسه، ج1، ص7 .**

**21- علي بن محمد المدائني : مؤرخ كثير التصانيف من أهل البصرة ، توفي سنة 225هـ / 839م (زهير ظاظا، ترتيب الأعلام على الأعوام، دار الأرقم للطباعة ، بيروت ،ج1،ص226).**

**22- محمد بن عمر الواقدي : مؤرخ مشهور له مؤلفات كثيرة، توفي سنة207هـ/822م (زهير ظاظا ، مرجع سابق،ج1،ص218) .**

**23- ضياء بن محمد الكلبي : مؤرخ عالم بالأنساب من أهل الكوفة ، توفي سنة204هـ/819م (زهير ظاظا، مرجع سابق،ج1،ص218).**

**24- عبد الملك بن غريب الباهلي الأصمعي ، راوية العرب من البصرة ، له تصانيف كثيرة منها الدارات، توفي سنة216هـ/ 831م (زهير ظاظا، مرجع سابق،ج1،ص194) .**

**25- عوانة بن الحكم : مؤرخ ضرير من الكوفة له سيرة معادية ، توفي سنة147هـ/ 764م (زهير ظاظا، مرجع سابق،ج1،ص194).**

**26- الهيثم بن عدي : مؤرخ له تآليف كثيرة منها طبقات الفقهاء و المحدثين، توفي سنة207هـ/822م (زهير ظاظا، مرجع سابق، ،ج1،ص217).**

**27- السيد عبد العزيز سالم، التاريخ و المؤرخون العرب ، دار النهظة العربية، بيروت19886،ص88.**

**28- عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الاسلامية، دار النهظة العربية ،بيروت،1985،ص330**

**29- نفس المرجع،ص335.**

**30- أمخزون محمد، مرجع سابق ،ج1،ص223**

**31- علي أومليل، الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، معهد الإنماء العربي، بيروت، ص33.**

**32- أمخزون محمد، مرجع سابق ،ج1، ص226 .**

**33- شاكر مصطفى، التــاريخ العربي و المؤرخون، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، 1978، ص 263 .**

**منهجية الطبري في التأريخ**

**وإنّ الدارس لكـتابات مؤرخينا الأوائل يجدها في الغالب تعتمد منهجا واحدا ، إنّه الإسناد الذي كان بمثابة الملاذ الذي يلجأ إليه المؤّرخ المسلم لتوثيق خبره من جهة ولتبرئة ذمته من الخبر إن كان غير صحيح وتحميل نـاقليه مسؤولية صدقه أو كذبه من جهة أخـرى ، ولقد حاز المسلمـون الريادة حين ابتدعوا هذا الأسلوب الذي لم يُعهد من قبل في كتابة الأحداث التاريخية ولم تعرفه أمة من الأمم السابقة أو اللاحقة ، و هي ميزة تحسب لهم ، وهذا يدخل في إطار الإبداع العلمي ، و كما هو معلوم فإن التوثيق من الأشياء المطلوبة التي تضفي على الخبر التاريخي مصداقية أكبر .**

**بدأ الإمام الطبري حياته العلمـية بدراسة الحديث ، فكان حرياً أن يتأثر بمنهج المحدثين في جمع الرواية التاريخية والاهتمام بسندها، فـكـان يجمـع مـأثــور الروايات ويدونها مع إسنادها إلى مصدرها مثل : شيخ تتلمذ عليه ، أو عدل شارك فـي الحادثة أو كان له علم بها ، أو كتاب تدارسه بالسند المتصل قراءة وسماعاً وإجازة . فكان في الغالب يلتزم وجهة المحدثين في الاهتمام الذي ينصب على الإسناد حيث يثبته في معظم الأحيان في الروايات.   
يقـول في هذا الشأن في مقدمة تاريخه : "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضـرت ذكــره فيه ، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلـى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس.. إلا القليل اليسير منه" .**

**وقد جسّد هذا المعنى مؤرخنا الكبير الإمام أبو جعفر الطبري ، فقد أجاد في كتابه التاريخ الإسلامي بالرواية ، وإن لم يحكم على ناقليها فهذا لا يعتبر عيبـا في مـؤلفه ، فـجمعه لروايات كثيرة أحيانا قد تكون متناقضة يعتبر عملا تركيبا ضخما ، ومن أراد تحقيقها قبولا أو رفضــا فما عليه إلا تتبع أسانيدها والحكم عليها بما تستحق .**

**لقد ترك الطبري بصمة واضحة في مجال الكتابة التاريخية ، ففي أيامه بلغ علمان أساسيان متقاربان إلى حد كبير نضجا كبيرا علم الحديث والتاريخ ، فتدوين الحديث الشريف عرف عصره الذهبي في القرن الثالث الهجري ، والحال كذلك بالنسبة لتدوين التاريخ الـذي سيعرف نقلة نوعية مع كتاب الطبري رحمه الله .**

**وهكذا أكد الإمام الطبري حرصه على إسناد كل خبر إلى قائله وأنه لن يسمح لحجج العقول وفكر النفــوس أن تتدخل فـي التفسير والاستنباط ، في الكتابة والتدوين أثناء جمع المادة ، وما ذاك إلا حرصاً منه على جمع ما قيل كله أو جله من وجهات نظر متعددة إن كانت ، وبعد ذلك تحصل الموازنة والمقارنة ، والاستنباط والقبول والرد لمن يريد .  
ولما كان تاريخ صدر الإسلام - خـصـوصــاً فترة الفتنة - أكثر حساسية من غيره ، إذ فيه روايات أملتها عاطفة الرواة أو الاتجاهات الـسـيـاسية أو اختلاف وجهات النظر والفهم ، ونظراً لأن الروايات تتأثر بعوامل مختلفة كالنـسـيـان والـمـيـول والنزعات فيصعب الجزم بدقتها وسلامتها ، فإن هذا مما يجعل إبداء الرأي فيها أو إصدار حكم بشأنها يبدو معقداً للغاية .  
ولهذا قام الإمام الطبري -رحمه الله - وهو يعرض وجهات النظر المختلفة لرواته ومصادره باتباع طريقة جمع الأصول وتدوينها على صورة روايات ، المسؤول عنها رجال السند أي الرواة الأخباريون . وقد برهن على ذلك في قوله :  
"فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما ينكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك عن نحو ما أدي إلينا" .  
ومن منهجه أيضاً الحياد ، فهو يعرض مختلف وجهات النظر دون تحزب أو تعصب ، وإن كان له رأي خاص فيظهر أحياناً في اختياره للروايات وإيراد بعضها وترك البعض الآخر ، متجنباً إعطاء حكم قاطع في القضايا التي يتعرض لها ، حتى أنه لا يفضل رواية على أخرى إلا نادراً .  
وقد أدى به التزام هذا المنهج إلى الحرص على إيراد الروايات المختلفة للحادث أو الخبر الواحد ، وعند المقابلة بين الروايات يستعمل تعبير: "واختلف في كذا" ثم يعقبه باستعراض الروايات المختلفة لرواته كقوله : فقال بعضهم.. وقال بعضهم.. وقال هشام بن الكلبي.. ، وكقوله : وذكر عن فلان أنه قال.. وحدثنا فلان.. وقال آخرون.. وقال بعضهم.. (4/174)   
إلا أن النقد والمقابلة يظهر جلياً في عدد من الأخبار التي ترد في نهاية الحوليات كالوفيات والصوائف وتعيين ولاة الأقاليم وأمراء الحج ، ومثال ذلك في قوله : "وفي سنة كذا توفي أبو العباس يوم.. بالجدري . وقال هشام بن محمد الكلبي - توفي يوم.. واختلف في مبلغ سنه يوم وفاته . قال بعضهم.. وقال بعضهم.. وقال الواقدي.. (4/470) ، وقوله : "وغزا الصائفة في سنة كذا فلان ، وقال الواقدي أن الذي غزا الصائفة في هذه السنة فلان"(8/241) .  
وهكذا إذا كان للحادث روايات مختلفة اعتقد الإمام الطبري بوجوب ذكرها لتكتمل الرؤية عنه . لكن مع اجتهاده في تدوين كل ما يمكن تدوينه من الروايات والأقوال من الخبر الواحد ، فإذا وصل إلى موضوع مطول مختلف فيه قطعه ليذكر مواضع الاختلاف مشيراً إليها (4/ 466،468،469) . فإذا ما انتهى منها عاد إلى المتن - أي إلى الموضع الذي وقف عنه - فيمهد للكلام بإشارة تدل على استئنافه كأن يقول : "رجع الحديث إلى حديث فلان.."(4/470) .  
وما يلاحظ أن هذه الطريقة تربك القارئ ، فتنسيه الحادث الأصلي ، إذ تشكل عقبة أمام الوحدة الموضوعية للحادثة التاريخية ، وربما كان الأفضل عرض كل رواية عرضاً متكاملاً من أولها إلى آخرها ، الواحدة تلو الأخرى ، وبهذا العرض الكامل تتكون لدى القارئ فكرة واضحة عن الموضوع وعن الأوجه المختلفة فيه ، فيستطيع أن يوازن بين جميع الآراء ، ويرجع بعضها على بعض، فتتكون بذلك لديه نظرة إيجابية عن الموضوع.  
وقد راعى الإمام الطبري في ترتيب تاريخه تسلسل الحوادث ، فرتبها على حسب وقوعها عاماً بعد عام منذ الهجرة إلى نهاية عام 202 هـ (914 م) . فذكر في كل سنة ما وقع فيها من الأحداث التي رأى أنها تستحق الذكر .  
ويختلف حجم الحوليات لديه حسب كثرة وقوع الحوادث فيها أو قلتها وأهميتها وبلوغ أخبارها إليه ، فيطيل ويقصر وفق ذلك ، فبعض الحوليات لا تعدو أسطراً (سنة25) ، وبعضها صفحة أو صفحتان (سنة 29،48،0 7) ، والبعض الآخر يزيد طوله على مائة صفحة (سنة35،36) ، وإذا كانت - الحادثة طويلة فيجزئها حسب السنين التي تستغرقها .  
أما طريقته في سرد أحداث كل حولية فليست على نسق واحد ، فتارة يذكر الحادث التاريخي ثم يبدأ في ذكر تفصيله والروايات فيه (4/442) ، وتارة يذكر جملة الأحداث التي كانت هذه الحولية ثم يعود إلى تفصيل بعضها (4/317) ، وتارة ثالثة تقتصر الحولية على جملة من الأحداث في بضعة أسطر (4/250) ، وفي ختام الحولية يذكر بعض من توفي في تلك السنة من المشهورين ، لكن هذا ليس مضطرداً ، أما الذي لا يكاد يتركه غالباً في ختام كل حولية فذكر أسماء عمال الأقاليم أو أمراء الحج أو هما معاً في تلك السنة ، وفي الحوليات التي أعقبت حركة الفتوح يحرص على ذكر أخبار المرابطين على الثغور للجهاد ، كما يسمي الصوائف والشواتي ، والحصون والمدن التي استولى عليها المسلمون.  
وبالنسبة للأخبار التي لا ترتبط بزمن معين كالسير مثلاً ، فقد كان يختم بها الحديث عن كل خليفة عند وفاته ، فبعد أن يذكر الأحداث في عهده مرتبة على السنين يختمها باستعراض سيرته دون التقيد بعامل الزمن.  
ومما ينبغي أن يذكر أن الإمام الطبري لم يتقيد بطريقة الحوليات في كل كتابه ، وإنما اتبعها في الحوادث الخاصة بتاريخ الإسلام .  
أما في القسم الرابع - أي منذ الخليقة إلى الهجرة - فقد اتبع منهجاً آخراً في عرض الحوادث فلم يرتبها على حسب وقوعها عاماً بعد عام ، إذ كان ذلك متعذراً ، ولكن سار على النهج الذي سلكه أكثر المؤرخين القدماء بالبدء بالخليقة ثم بالأنبياء ثم التعرض للحوادث التي وقعت في أيامهم ، وذكر الملوك الذين كانوا يعاصرونهم وأخبارهم ، وكذلك الأمم المعاصرة لهم والتي جاءت بعدهم إلى ظهور الإسلام وبعثه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - .  
ويكثر الإمام الطبري في تاريخه من تسجيل النصوص التاريخية من رسائل وخطب ومحاورات ولا سيما الشعر رغبة في توثيق الحوادث أو التشويق إليها . كما أنه حاول ضبط النصوص التي يرويها دون تبديل أو تغيير إلى درجة أنه كثيراً ما تبقى الكلمات والألفاظ غير العربية كما هي (2/51،54،62) .  
أما منهجه في إثبات المصادر ، فإنه إذا ما نقل من كتاب ما فإنه قلما يذكر عنوانيهن ، وإنما يذكر اسم مؤلفه كقوله مثلاً : "قال الواقدي" أو "قال أبو مخنف.." وإذا سمع من أحد مشافهة قال : "حدثني فلان.." فإذا اشترك مع راوي محدثه في السماع آخر أو آخرون قال : "حدثني فلان قال.. حدثنا فلان وفلان.. ثم سلسل السند إلى مصدره الأصلي" .  
وكان يعتمد أحياناً على المراسلات فيقول : كتب إلى السري عن شعيب عن سيف" (4/262) وقد حرص في الغالب على السند المتصل إلا في بعض المواقع كقوله : "وقد قيل" أو "ذكر عن فلان" (5/172) .  
وكان يضع العناوين لأحداثه وخاصة المهمة منها في بداية كلامه عن بدء كل سنة تحت عنوان عام مثل قوله : "ثم دخلت خمس وثلاثين ، ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث المشهورة" أو "ذكر الأحداث المشهورة التي كانت فيها" أما الأحداث الصغيرة التي لا تتجاوز بضعة أسطر ، فإنه يذكرها متعاقبة تحت عنوان : ثم دخلت سنة كذا ، وذكر الأحداث التي كانت فيها .  
أما فيما يتعلق بعدالة الرواة ، فإذا كان الإمام الطبري لا يتقد بالقيود التي تمسك بها أهل الحديث بالنسبة إلى الرواة الضعفاء ، فأدخل في تاريخه أقوال الكلبي وابنه هشام والواقدي وسيف بن عمر وأبي مخنف وغيرهم من الضعفاء المتهمين بالكذب والوضع في الحديث ، فإن ذلك يرجع إلى اتباعه منهجاً معلوماً عند علماء الحديث وغيرهم حيث يذكرون ما يبلغهم ويسوقون سنده ، فالصحيح يؤخذ وغير الصحيح يعرف ويرد وفق ضوابط الشرع وقواعد الرواية..  
وهكذا لم يكن الإمام الطبري بذلك العمل مغفلاً أو جاهلاً عندما يورد مئات الروايات عن الضعفاء والمتروكين ، لكنه يتبع منهجاً مرسوماً عند علماء الجرح والتعديل لا يلزم من إيراد أخبار المتروكين والضعفاء وتدوينها في كتاب من الكتب للاحتجاج بها كقولهم : "يروي حديثه ولا يحتج به" و "يذكر حديثه للاعتبار" ، و "يكتب حديثه للمعرفة" ، "ولا يجوز الرواية عنه إلا للخواص عند الاعتبار" .   
وفي هذا الصدد قال الحافظ ابن حجر في ترجمة الطبراني بأن الحفاظ الأقدمين يعتمدون في روايتهم الأحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الأسانيد ، لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث بإسناده فقد برئوا من عهدته ، وأسندوا أمره إلى النظر في إسناده. ولكون الإمام الطبري من علماء الحديث فقد سار على هذا النهج في تاريخه ، فهو ليس صاحب الأخبار التي يوردها بل لها أصحاب آخرون أبرأ هو ذمته بتسميتهم ، وهؤلاء متفاوتون في الأقدار ، وأخبارهم ليست سواء في قيمتها العلمية ، ففيها الصحيح والضعيف الموضوع ، تبعاً لصدق الرواة أو كذبهم ومنزلتهم من الأمانة والعدالة والتثيبت ، ولذلك ينبغي دراسة أسانيد ومتون الروايات وفق المقاييس المعتبرة عند العلماء للوقوف على مدى صحتها من عدمه .  
وبناء على ذلك لا يكفي في المنهج العلمي السليم الإحالة على تاريخ الإمام الطبري أو غيره من الكتب المسندة دون دراسة سند الرواية ومتنها ، لأن من أسند فقد برىء من العهدة .  
ومما يلاحظ أيضاً أن الطبري لم يرد الاقتصار على المصادر الموثوقة ، بل أراد أن يطلع قارئه على مختلف وجهات النظر ، فأخذ من مصادر أخرى قد لا يثق هو بأكثرها إلا أنها تفيد عند معارضتها بالأخبار القوية ؛ فقد تكمل بعض ما فيها من نقص ، أو تقوى الخبر باشتراكها مع المصادر الصحيحة في أصل الحادثة .  
إن مثل الإمام الطبري ومن على شاكلته من العلماء الثقات الأثبات في إيرادهم الأخبار الضعيفة كمثل رجال القضاء إذا أرادوا أن يبحثوا في قضية ، فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره .  
ولهذا فقد كان لا يفرط في خبر مهما علم من ضعف ناقله خشية أن يفوته بإهماله شيء من العلم أو الفائدة ولو من بعض النواحي ، إلا أنه يسند كل خبر إلى راويه ليقف القارئ على قوة الخبر أو ضعفه من كون رواته ثقاة أو مجروحين ، وبذلك يرى أنه أدى ما عليه ، خصوصاً وقد وضع بين أيدي القارئ كل ما وصل إلى يده من نصوص وطرق مختلفة للخبر.  
ومن فوائد إيراد الخبر الواحد من طرق شتى وإن كانت ضعيفة ما قاله ابن تيمية:   
"إن تعدد الطرق مع عدم الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول - أي بالقدر المشترك في أصل الخبر - لكن هذا لا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين - أي نزعاتهم والجهة التي يحتمل أن يتعصب لها بعضهم - وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيء الحفظ.. ونحو ذلك ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذا ويقولون أنه يصلح للشواهد والاعتبارما لا يصلح لغيره ، وقال أحمد : قد أكتب حديث الرجل لأعتبره" .  
وتحسن الإشارة إلى أن اتساع صدور أئمة السنة من أمثال الإمام الطبري لإيراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم دليل على فهمهم وأمانتهم ورغبتهم في تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما في الأمر ، واثقين من أن القارئ اللبيب المطلع لا يفوته العلم بأن مثل أبي مخنف وابن الكلبي وغيرهم هم موضع تهمة فيما يتصل بالقضايا التي يتعصبون لها ، مما ينبغي معه التحري والتثبت لاستخلاص الحقائق المختلطة بالإشاعات والمفتريات .  
أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم أو لجهلهم بمنهج الإمام الطبري ولا يتعرفون إلى رواتها ويكتفون بالإشارة في الحاشية إلى أن الطبري روى في صفحة كذا من جزء كذا.. ويظنون أن مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء قد يظلمون الإمام الطبري بذلك ويسيؤون إليه ، وهو لا ذنب له بعد أن بين لقرائه مصادره ، وعليهم معرفة نزعات وأحوال أصحاب هذه المصادر ليعرفوا للأخبار أقدارها بوقوفهم على أقدار أصحابها .  
وهذا المنهج لا يمكن استعماله إلا عن طريق الإلمام بعلم الجرح والتعديل الذي يهتم بفحص أحوال الرواة ويبين شروط الانتفاع بأخبارهم ، كما ينبغي أيضاً مراعاة المقاييس التي وضعها العلماء في نقد متون الأخبار ، وخصوصاً وضع الملامح العامة للمجتمع الإسلامي وطبيعته في الحسبان ، ويعتبر ذلك كله من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي .**

**\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_**